أصالة البلاغة العربية

للدكتور علي محمد حسن العماري

قضية من القضايا الخطيرة عالجتها في عصرنا الحاضر أقلام كثيرة ، وعرض لها ـ في القديم ـ بعض الباحثين من علماء العربية ، ولا زالت موضع بحث ودرس ، يؤكدها قوم ، ويرفضها آخرون .

ومن الرافضين من يزعم أن علماء البلاغة العرب أخذوا علمهم هذا عن اليونان ، ومنهم من يقتصد فيكتفي بالقول بالتأثير ، وإن ذهب بعضهم إلى أن تأثير اليونانية في البلاغة العربية كان عميقاً .

ويعتمدون في زعمهم هذا على ما كتبه (أرسطو) في كتابي (الخطابة) و(الشعر) اللذين ترجما إلى العربية في أوقات اختلفوا فيها .

وربما كان أمراً طبيعياً من المستشرقين الذين تضيق صدور أكثرهم بكل فضل ينسب للعرب ، فتحملهم العصبية المقيتة ، والبغض الدفين للعرب والعربية على أن يردوا كل عمل عقلي جليل إلى غير العرب .

قد يكون ذلك طبيعياً من المستشرقين ، ولكنه ليس طبيعياً من قوم ، مَجْدُ العرب مجدُهم ، وفخر العرب فخرهم .

وربما تذرعوا بأن الحق وحده هو رائدهم ، وهذا ـ ولا شك ـ شيء جميل ، ولكن الباحث عن الحق لا يعتسف الدليل اعتسافاً ، ولا يعمم في الحكم حين لا يمكن التعميم بحال .

النحو العربي مصدره السريان ، والفقه الإسلامي مصدره الرومان ، والبلاغة العربية مصدرها اليونان .

هكذا يقول ويؤمن ويؤكد باحثون من أبناء جلدتنا ، ولا دليل لأكثرهم إلا المشابهة ـ أحياناً ـ التي لا وجه لإنكارها في الآثار الفكرية ، والمعارف الإنسانية ، مهما تباعدت الديار ، واختلفت الأزمان ، وليست المشابهة وحدها ـ طالما أنها أمر طبيعي ـ دليلاً على النقل .

وقضيتنا هنا التي نبحثها خاصة بعلوم البلاغة العربية ، وهل هي أصيلة كانت نتيجة عقول عربية إسلامية ، أو هي نقل واحتذاء لبلاغة أرسطو ، ومتأثرة بالمنطق اليوناني ؟ .

ويبدو أن أول من نادوا باحتذاء البلاغة

العربية لبلاغة أرسطو هو الدكتور طه حسين .

فقد قال الدكتور زكي مبارك : (قال الدكتور طه في محاضرة ألقاها في حديقة الأزبكية في ربيع سنة **١٩٢٩** م : (إن البلاغة العربية أخذت حرفياً عن البلاغة اليونانية حتى في الشواهد والصور والتعابير) ، ثم أثبته في البحث الذي نشر مع كتاب (نقد النثر) لقدامة بن جعفر) .

ثم قال زكي مبارك : (وأذكر أنه أوصاني بالرجوع إلى تاريخ الآداب الفارسية لأعرف بالضبط من هم الكتاب الفرس الذين أوحوا إلى كتّاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس)(١) .

ويعلق الدكتور زكي مبارك على ذلك قائلاً : (بعد هذا ينبغي أن ننظر في نشأة العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض ، وهي - أيضاً - في رأيي قديمة ، لا يصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الإسلام في القرن الأول والثاني كما يظن مؤرخو الآداب العربية ، لأنه لا يعقل أن يظهر كتاب كالقرآن في أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا في الفصاحة والعروض والنقد ، وطرائق التعبير ، وظهورُ كتاب كالقرآن في أي لغة يدل على أنها تعدَّت طور الطفولة منذ أزمان ، واللغة حين تصل إلى عهد القوة والفتوة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقييد ما يعرض للأساليب من القوة والضعف والوضوح والغموض)(٢) .

ويقول : (لاحظ مؤرخو الآداب أن بشاراً هو أول من كَلِف بالبديع في شعره ، وتبعه في ذلك مسلم بن الوليد وأبو نواس ، وأن أبا تمام تأثر مُسْلِماً ، وأولئك من شعراء القرن الثاني ، فهل نشأ البديع في يوم وليلة ، أو كان موجوداً وتطور على ألسنة أولئك الشعراء)(٣) .

ونعود إلى الدكتور طه حسين و (مقدمة نقد النثر) ، وهي بحث كتبه باللغة الفرنسية ، ثم نُقل إلى العربية وجعل تمهيداً لكتاب نقد النثر .

ومما جاء فيه قول كاتبه أن (أرسطو ليس المعلم الأول للمسلمين في الفلسفة وحدها ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول في علم البيان)(٤) .

وأن متكلمي المعتزلة الذين كانوا جهابذة الفصاحة العربية ، وكانوا بتضلعهم من الفلسفة اليونانية مؤسسي البيان العربي حقاً تأثروا بالهيلينية .

نعم ، هو لا يستطيع - كما يقول - أن يقطع (بأنهم كانوا مطلعين على البيان اليوناني لعهدهم ، ولكن لا شك أن تفكيرهم الفلسفي أعدهم لأن يتصوروا صناعة الكلام كما كان يتصورها اليونان من بعض الوجوه)(٥) .

وإنه - أي الدكتور طه - لم يطلع على كتاب (البديع) لابن المعتزّ ، ولكن الذي نقل عنه إذا

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع الهجري . ص ٥١ . ط . دار الجيل - بيروت .

(٢ و٣) المصدر السابق ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٤) البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ص ٣١ .

(٥) المصدر السابق ص ٨ .

قورن بما جاء في كتاب (قدامة بن جعفر) أمكن أن يلحظ فيه ـ لا محالة ـ أثراً بيّناً للفصل الثالث من كتاب (الخطابة) ، وبعبارة أدق للقسم الأول من الفصل الثالث ، وهو الذي يبحث في العبارة(٦) .

وإن المؤلفين من العرب (تحاشوا أن ينقلوا عن المعلم الأول جميع الأمثلة التي كان يمثل بها ، لا لشيء أكثر من أنهم لم يفهموا هذه الأمثلة) .

لكنَّ مثالاً واحداً فهموه فأخذوه من المعلم الأول . يقول (كرَّ هذا أسداً) فيضعون هذا المثال في كل كتاب من كتب البيان العربي ، ولا فرق إلا أنهم وضعوا زيداً مكان (أخيل) الذي كان يتحدث عنه هوميروس . قال الدكتور طه : (وإذاً فقد فهم العرب هذا المثال)(٧) .

ولكن الواقع ـ كما يقول ـ إن علماء البيان من العرب برغم سخطهم على كتاب (الخطابة) لم يكفوا عن أن يعنوا به ، ويحرصوا عليه أشد الحرص .

أما عبد القاهر الذي وضع كتاب (أسرار البلاغة) المعتبر غرة البيان العربي فلم يكن إلاّ (فيلسوفاً يجيد شرح أرسطو ، والتعليق عليه)(٨) .

فالعرب فهموا حق الفهم القسم الخاص بالعبارة من كتاب الخطابة ، أما كتاب (الشعر) فلم يفهمه أحد على الإطلاق ، لا أدباء العرب ، ولا فلاسفتهم .

ومع ذلك فإن فصولاً في نقد النثر تخلو من الابتكار ، وليست في الواقع إلا (مجرد احتذاء) لبعض فصول كتاب الشعر الذي لم يفهمه أحد !! .

بل إن كتاب نقد النثر كله يستمد غذاءه من خطابة أرسطو وشعره ، بجانب استمداده من الأدب العربي .

ثم يعود الدكتور إلى عبد القاهر فيقرر أنه تعمق في دراسة المجاز والتشبيه تعمقاً لم يسبق إليه : (ولكنه من غير أن يخرج بحال من الحدود التي رسمها أرسطو) .

وإنه ـ يعني عبد القاهر ـ أنفق جهداً صادقاً خصباً (في التأليف بين قواعد النحو العربي ، وبين آراء أرسطو العامة في الجملة والأسلوب والفصول)(٩) .

وأما (ابن سينا) فهو ـ عند الدكتور ـ من فلاسفة العرب الذين (لم يكونوا أجود فهماً لمعظم (كتاب الخطابة) من المتكلمين وعلماء البيان ، لقد كانوا مثلهم يجهلون (الهيلينية) كلها عن الفلسفة بطبيعة الحال)(١٠) .

(على أن الفلاسفة والأدباء يستوون في أنهم كانوا جميعاً يفهمون حق الفهم القسم الخاص بـ (العبارة) من (كتاب الخطابة) ، ولكن الأولين كانوا أحسن من الآخرين فهماً لما أورده فيه (أرسطو عن الأخلاق والانفعالات ، دون أن يلحظوا ما يرتبه عليها من القيمة

---

(٦) المصدر السابق ص ١٢ . (٧) المصدر السابق ص ١٣ . (٨) ص ٢٩ . (٩) ص ٣٠ . (١٠) ص ١٥ .

الأدبية)(١١) .

وأعاد الدكتور هنا أن متّى بن يونس ترجم (كتاب الشعر في القرن الرابع ، والذي لم يفهمه أحد على الإطلاق) .

على أن ابن سينا الذي لم يكن أجود فهماً لمعظم كتاب الخطابة من المتكلمين وعلماء البيان : (لا عجب أن يكون فهم كتاب الخطابة فهماً لا بأس به ، وقد حلله في (الشفا) تحليلاً دقيقاً ، وشديد القرب من الأصل)(١٢) .

هكذا (تحليلاً دقيقاً وشديد القرب من الأصل) مع أنه لم يكن أجود فهماً . . . إلى آخر ما قال .

ومع أن كتاب الخطابة لم يفهم المتكلمون والفلاسفة والأدباء معظمه ، ومع أن كتاب (الشعر) لم يفهمه أحد على الإطلاق ، يقول الدكتور : (فمنذ تم نقل كتابي (الخطابة) و (الشعر) إلى اللغة العربية عدهما الفلاسفة متممين لمنطق أرسطو ، وتناولوهما بالتحليل والشرح)(١٣) .

وفي الصفحة التالية يقول الدكتور : (قد نكون مبالغين إذا قلنا أن ابن سينا أحاط علماً بكتاب الخطابة ، ولكن لا شك في أنه أحاط بجوهره) .

ولكن لا بأس أن يكون قدامة أقدر على فهم كتاب الخطابة من ابن سينا ، فقد قال نفس الكاتب : (على أنه إذا كان قدامة يجهل (كتاب الشعر) فقد كان على إحاطة تامة بكتاب (الخطابة) وقد فهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به ، وطبق ما فهمه على الشعر العربي)(١٤) .

ولا بأس - أيضاً - أن يجهل المؤلفون العرب - مع أن بعضهم أحاط بكتاب الخطابة إحاطة تامة - كل الأمثلة التي ذكرها المعلم الأول عدا مثالاً واحداً ! ! .

ونعود إلى (ابن سينا) فهو - عند الدكتور : (لم يجد فهم كتاب الشعر كما فهم كتاب الخطابة)(١٥) وإذاً فقد فهم كتاب الشعر ، ولكنه لم يجد فهمه ، هذا الكتاب الذي لم يفهمه أحد على الإطلاق ! ! .

(لكن ابن سينا فهم حق الفهم (نظرية المحاكاة) ، وجاء بصورة صحيحة للصناعة الشعرية ، وللوسائل التي يتوسل بها في التغلب على الصعاب التي تعترض الشاعر ، وجملة القول أنه فهم كل ما يمكن أن يفهمه شرقي يجهل الآداب اليونانية كلها ، كما فهم أصولاً عامة ، وأصولاً قد تنطبق على الأدب العربي من بعض الوجوه ، وهو نفسه يعترف بذلك)(١٦) .

لقد حرصت على أن ألخص آراء الدكتور (طه) بكل دقة ، وأن أثبت هذا التلخيص هنا ليتبين القارىء أمرين :

الأول : مدى الاضطراب والتناقض في هذا الذي سماه الدكتور (بياناً) ، والحق أني لم أقرأ بحثاً لكاتب كبير فيه من الاضطراب ، والعبث بالحقائق كهذا البيان .

---

(١١) نفس الصفحة . (١٢) ص ٢٤ . (١٣) نفس الصفحة . (١٤) ص ١٧ . (١٥) ص ٢٧ . (١٦) ص ٢٧ ، ٢٨ .

الثاني : مدى الجور الذي ألحقه الكاتب بالعلماء العرب حتى جعلهم في بعض ما قال لا يقولون حرفاً واحداً من عندهم ، وحتى ينصح أحد الكاتبين بأن يبحث عن مصدر ما جهل مصدره من بديعهم ، لأنه لم يتصور أنهم وضعوا شيئاً بجهودهم الخاصة .

وإذا كنا نعجب من شيء فعجبنا أولاً من حديث الدكتور عن كتاب (البديع) لابن المعتز فهو لم يطلع على الكتاب ، ولكن حين يقارنه بنقد الشعر لقدامة يلحظ فيه لا محالة أثراً بيّناً للفصل الثالث من كتاب الخطابة .

وليس في البحث العلمي أجرأ من هذا على الحقائق ، فإذا كان ابن المعتز ذكر في كتابه ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع ، وقد ذكرها قدامة فمن يدرسها في كتاب قدامة يحكم على أنواع ابن المعتز بما حكم به على أنواع قدامة ، كأنه لا يمكن أن يختلف عالم عن عالم ، ولا يمكن - مثلاً - أن يذكر عالم نوعاً مستمداً معارفه من العربية الخالصة ، ثم يذكره عالم آخر فيظهر في بحثه أثر لثقافة أخرى غير العربية .

وقد جاء في (زهر الآداب) ما نصه : (قال أبو بكر الصولي : اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبي العباس عبد الله بن المعتز ، وكان يتحقّق بعلم البديع تحقّقاً ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته، فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شِعْباً من شعابه، وأرانا أحسن ما قيل في بابه)(١٧) .

قال الدكتور زكي مبارك بعد أن أورد هذه الكلمة : (فالمسألة إذن أن ابن المعتز كان يدّعي التفوق في علم البديع ، فعلم البديع كان معروفاً ، ومن الصعب أن نقبل سكوت كتاب العرب وأدبائهم نحو قرنين عن هذا الفن حتى يجيء هذا الأمير المترف فيؤلف فيه)(١٨) .

ويكمل صاحب زهر الآداب فينقل عن الصولي قوله بعد ما سبق : (فما أحد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس إلا وقد غمره من بحر أبي العباس ما غاض فيه معينه) .

والذي يعنينا هنا أن فقه كلام الصولي المدح البالغ لابن المعتز بمعرفة البديع ، ولو كان عند ابن المعتز معرفة ببلاغة يونان لكان هذا الموضع أحق المواضع بالإشادة بهذه المعرفة . ولنا عودة إلى ابن المعتز وكتابه .

* * *

يؤكد الدكتور طه في أول بحثه الذي أشرنا إليه أن الجاحظ لم يعرف شيئاً عن كتاب الخطابة لأرسطو(١٩) .

قال : (ومع ذلك فالعرب لم يخطئوا عندما عدُّوا الجاحظ مؤسس البيان العربي) .

ولا يخفى على دارس ما سبق عهد الجاحظ من نظرات نقدية كانت أساساً لقواعد بلاغية ، بل من نظرات بلاغية صريحة ظهرت بأسمائها في

---

(١٧) جـ ٤ . ص ١٢٣ .

(١٨) النثر الفني في القرن الرابع الهجري. هامش صفحتي ٦٥، ٦٦.

(١٩) مقدمة نقد النثر ص ٣ .

كتب المتأخرين من علماء البلاغة .

كما لا يخفى ما استخلصه الباحثون من فنون بلاغية وردت في كتب الجاحظ(٢٠) ، وقد أفاد منها كل من تكلموا بعده في علوم البلاغة .

ويمتدُّ بنا نفَس القول لو سمحنا للقلم أن يدون كل ما سبق عهد الجاحظ من فنون بيانية ، ولكننا نكتفي بما نعده من نماذج قليلة .

ذكر أبو هلال العسكري أن أكثم بن صيفي كان إذاً كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : (افصلوا بين كل معنى منقضٍ ، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض)(٢١) .

وإن الحارث بن أبي شمر الغساني كان يقول لكاتبه المرقش : (إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بغير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها ، وملتها الأسماع ، واستثقلتها الرواة)(٢٢) .

وقد روي أن عبد الله السفاح الخليفة العباسي قال يوماً لكاتبه : قف عند مقاطع الكلام وحدوده ، وإياك أن تخلط المرعي بالهمل .

ولمحة خاطفة تخطر على البال هنا ، لقد طالعت كتاب العبارة ترجمة ابن سينا ، وترجمة ابن رشد ، وطالعت تلخيص خطابة أرسطو لابن رشد ، وطالعت أرسطوطاليس في الشعر فلم أظفر على أثر فيها يمكن أن يكون أفاد منه الشيخ عبد القاهر فيما كتبه عن (الفصل والوصل) ذلك الإمام الذي يحكم عليه الدكتور طه حسين بأنه لم يخرج عن دائرة أرسطو ! .

فإذا خطونا إلى أوائل زمن التدوين وجدنا مصطلحات بلاغية في كتب ذلك العهد فقد علق (سيبويه) على قول الخنساء في وصف ناقة حزينة على ولدها :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت
فإنما هي إقبال وإدبار

قال : فجعلها الإقبال والإدبار مجازاً على سعة الكلام كقولك : نهارك صائم ، وليلك قائم(٢٣). ورواية البيت في (الكتاب) : (ترعى إذا نسيت حتى) .

وهذه الأمثلة ظلت متداولة في كتب البلاغة العربية حتى وصلت إلى الشيخ عبد القاهر فاتخذها أصلاً للمجاز الحكمي ، أو المجاز العقلي ، ذلك المجاز الذي يرى الدكتور طه حسين أنه من ابتكارات عبد القاهر(٢٤) .

وقد ذكر سيبويه خروج الاستغاثة والاستفهام إلى الوعيد والتهديد ، وتحدث عن التقديم

---

(٢٠) انظر بحثا ضافيا نشر بمجلة : (البحث العلمي والتراث الإسلامي) . العدد الخامس عام ١٤٠٢ هـ . بعنوان : (الفنون البلاغية في بيان أبي عثمان) للدكتور علي العمّاري .

(٢١) كتاب الصناعتين ص ٤٤٠ .

(٢٢) نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(٢٣) الكتاب جـ ١ ص ١٦٩ .

(٢٤) مقدمة نقد النثر ص ٢٩ .

والتأخير ، وعن مراعاة حال المخاطب في بعض العبارات(٢٥) .

وكذلك ذكر الفراء(٢٦) المتوفى سنة ٢٠٧ هـ بعض الأنواع البيانية، ومنها خروج الاستفهام إلى التوبيخ ، والالتفات ، والتقديم والتأخير ، وأهم ما عُنِي به ، ونبه إليه فواصل الآي ، وأشار إلى القلب ، وإلى استعمال المفرد موضع المثنى ، والمثنى موضع المفرد ، والمفرد موضع الجمع . . . وهكذا . .

وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب (مجاز القرآن) ، المتوفى سنة (٢١١ هـ) نبه إلى مسائل بلاغية ، وإن يكن جلّ كتابه في التفسير .

ويكفي أنه بكتابه (المجاز) أشاع هذا الاصطلاح في بيئة الدراسات الأدبية ، والقرآنية ، وهو - وإن لم يعن بالمجاز المجاز الذي اصطلح عليه علماء البيان فيها بعد - مال في بعض التأويلات إلى المعنى الاصطلاحي وإن لم يقصده ، ولكنه أشار فأنار الطريق .

وبمناسبة ذكر أبي عبيدة هنا نقول إنه أحد القدماء الذين أطلقوا اسم الاستعارة على التشبيه الذي حذف أحد طرفيه .

وهذا الإطلاق يبطل بعض ما زعمه صاحب (المقدمة) مدعياً فيه أن عبد القاهر ما كان يجري إلا في فلك أرسطو .

قرأ الدكتور طه قول أرسطو : (التغيير على ضربين :

أحدهما : أن يستعمل لفظ شبه الشيء مع لفظ الشيء نفسه ، ويضاف إليه الحرف الدال في ذلك اللسان على التشبيه ، وهذا الضرب من التغيير يسمى التمثيل والتشبيه ، وهو خاص جداً بالشعر .

والنوع الثاني من التغيير أن يؤتى بدل ذلك اللفظ بلفظ الشبيه به ، أو بلفظ المتّصل به من غير أن يؤتى معه بلفظ الشيء نفسه ، وهذا النوع يسمى في الصناعة : (الإبدال) ، وهو الذي يسميه أهل زماننا بالاستعارة)(٢٧) .

وهذا عند علماء البيان هو الفرق بين التشبيه والاستعارة ، يكون الأسلوب تشبيهاً حيث يُذكر طرفا التشبيه مع أداة التشبيه أو مع حذفها ، وتكون الاستعارة حين يقتصر على أحد الطرفين .

قرأ الدكتور ذلك فدفعته العجلة إلى أن يربط بينه وبين تسمية عبد القاهر للنوع الثاني استعارة ، فقال : (وأما المجاز الذي يقوم على التشبيه ، والذي يسميه (أرسطو) ، (صورة) ، فيسميه عبد القاهر (استعارة) ، وهو لفظ كان القدماء يطلقونه على المجاز بكافة أنواعه)(٢٨) .

---

(٢٥) الكتاب ، صفحات ١٤ ، ٢٦ ، ٣١٨ ج ١ .

(٢٦) أبو زكرياء الفراء للدكتور أحمد مكي الأنصاري ص ٤٨٢ ، وما بعدها .

(٢٧) تلخيص الخطابة لأبن رشد ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ .

(٢٨) المقدمة ص ٢٩ .

وفي هذه العبارة مسألتان :

نبدأ بثانيتهما ، وهي أن لفظ الاستعارة كان يطلق قديماً على المجاز بكافة أنواعه ، وهي دعوى غير محررة ، وغير صحيحة ، فالاستعارة كانت تطلق على نوع خاص من المجاز ، وهو ما عرف فيما بعد بالاستعارة التصريحية ، وبالاستعارة المكنية . ويتبين ذلك من حديثنا عن المسألة الأولى .

أما الأولى فهي زعم الدكتور أن عبد القاهر أطلق اسم الاستعارة على مجاز التشبيه تبعاً لأرسطو ، وهذه دعوى أريد منها تأكيد الزعم بأن عبد القاهر لم يخرج عن دائرة المعلم الأول ، وهي دعوى غير صحيحة أيضاً .

فليس عبد القاهر هو أول من أطلق اسم الاستعارة على مجاز التشبيه ، بل سبقه بذلك كثيرون .

١ ـ كان أبو عمر بن العلاء لا يرى أن لأحد مثل هذه العبارة (قول ذي الرمة) :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى
وساق الثريا في ملاءته الفجر

ويقول : ألا ترى كيف صيّر له ملاءة ، ولا ملاءة له ، وإنما استعار هذه اللفظة(٢٩) .

٢ ـ ومما اختاره ابن الأعرابي وغيره قول أرطأة ابن سُهَيّة :

فقلت لها يا أم بيضاء إنني
هُرِيَق شبابي ، واستشنَّ أدِيمي

فقال : هريق شبابي لما في الشباب من الرونق والطراوة التي هي كالماء ، ثم قال : استشنَّ أديمي ، لأن الشَّنّ هو القربة اليابسة ، فكأن أديمه صار شَنّاً ، لمّا هريق ماء شبابه ، فصحت له الاستعارة من كل وجه ، ولم تَبعد(٣٠) .

٣ ـ وظهرت هذه الكلمة في كتاب : (النقائض بين جرير والفرزدق) لأبي عبيدة معمر بن المثنى حيث يقول تعليقاً على قول جرير :

لا قوم أكرم من تميم إذْ غدت
عوذُ النساء يُسَقْن كالآجال

قوله : (عوذ النساء) هنَّ اللاتي معهن أولادهن ، والأصل في عوذ الإبل التي معها أولادها ، فنقله العرب ، إلى النساء ، وهذا من المستعار ، وقد تفعل العرب ذلك كثيراً .

وكل هؤلاء عاشوا في القرن الثاني الهجري .

٤ ـ وقد صرح الجاحظ بلفظ « الاستعارة » ، ولكنَّ ورودَ الكلمة في كتبه قليل .

من ذلك ما جاء عند كلامه على (الذباب) ، فقد ذكر أن للذِّبّان يعاسيب ، قال : (وكل قائد فهو يعسوب ذلك الجنس المقود ، وهذا الاسم مستعار من فحل النحل) .

وكذلك جاءت الاستعارة ، والإشارة إلى تعريفها في موضع آخر حيث ذكر أبياتاً من الشعر جاء فيها :

وطفقت سحابة تغشاها
تبكي على عراصها عيناها

---

(٢٩) العمدة جـ ١ . ص ١٨١ .

(٣٠) العمدة جـ ١. ص ١٨٥ .

(٣١) النقائض جـ ١. ص ١٢١.

وعلّق عليه بقوله : (وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة ، وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه)(٣٢) .

٥ ـ وذكرها قدامة بن جعفر على نحو ما ذكرها غيره ممن سبقوه ، فقال : (وقد استعمل كثير من الشعراء الفحول المجيدين أشياء من الاستعارة ليس فيها شناعة كهذه ـ يشير إلى تسمية الصبي تَوْلباً في قول أوس بن حجر ـ وفيها لهم معاذير ، إذْ كان مخرجها مخرج التشبيه)(٣٣) .

أفبعد كل هذا يزعم زاعم أن تسمية مجاز التشبيه استعارة من عمل عبد القاهر ليصح له أن يقول أن عبد القاهر نسخة أخرى من أرسطو ، وأن البيان العربي منقول حرفياً من بلاغة اليونان ؟!! .

على أن الدكتور إبراهيم سلامة ينفي معرفة أرسطو للاستعارة ، أو تعريفَه للتشبيه(٣٤) ، لكنّ الدكتور محمد مندور يثبت أن أرسطو عرف الاستعارة(٣٥) .

والنص الذي نقلته آنفاً من (تلخيص الخطابة) واضح في أن أرسطو كان يعرف معنى الاستعارة ، وكان يسميها (الإبدال) ، والدكتور طه ينقل أنه يسميها (صورة) أما التشبيه فالنّص صريح في معرفة أرسطو به ، لكن الذي نرفضه أن يكون عبد القاهر أخذ عن أرسطو (الإبدال) أو (الصورة) ووضع مكان ذلك كلمة الاستعارة .

* * *

و (ابن المعتز) صاحب كتاب (البديع) الذي يجعله الدكتور طه متأثراً ببحث العبارة من كتاب : (الخطابة) يكفينا في الدفاع عنه تلميذه الدكتور إبراهيم سلامة ، ـ وهو باحثٌ بذل جهداً كبيراً في التوفيق بين بلاغة أرسطو والبيان العربي في كتابه : (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) ، وإنما نكتفي ـ بجانب ما قدمناه ـ بردود هذا الباحث لأنه من أشد الناس إيماناً بما كتبه الدكتور طه حسين ، فقد قال بعد أن لخص البحث الذي جُعِل تمهيداً لكتاب (نقد النثر) : (ونحن نسلم بكل ما جاء في هذا المقال من عرض واستنتاج وتقرير وتعليق)(٣٦) . وإذا عقَّب عليه فلن يعقب بأكثر من الزيادة فيه .

هكذا يقول عند تلخيصه لبحث الدكتور طه ، ولكنه حين يجيء لمقابلة الأنواع البديعية التي أوردها ابن المعتز ببلاغة أرسطو لا يسعه إلا أن يقول عن ابن المعتز أنه : (دوّن البلاغة كما يفهمها العرب ، وكما يعرضها الذوق العربي ، وكما يتخيلها شعراء العرب) .

---

(٣٢) كتاب (الحيوان) ج ٤ . ص ٢٧٣ .

(٣٣) البيان والتبيين جـ ١ . ص ١٥٣ . وانظر مجلة البحث العلمي العدد الخامس صفحتي ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣٤) نقد الشعر ص ١٧٥ .

(٣٤) بلاغة أرسطو ص ١١٢ .

(٣٥) النقد المنهجي عند العرب ص ٥٧ . ص ٦٢ .

(٣٦) بلاغة أرسطو ص ٦٨ .

ويقول بعد أن عرض لطباق أرسطو وطباق ابن المعتز : (وإذن يكون الطباق بمعناه الشعري اللغوي من استعمال العرب ، ومما يعرفونه من قبل أرسطو لأنه مساير للذوق العربي) . ولأن نظرة أرسطو إليه نظرة تقريرية منطقية ، ونظرة ابن المعتز نظرة أدبية .

ويعرض للجناس عند المؤلِّفَين ثم يقول : (لا نرى اتصالاً تفكيرياً وتقريرياً يسمح لنا بالقول بأن ابن المعتز عرف الجناس اليوناني على النحو الذي قرره أرسطو) . . . . . . وهكذا يأخذ في العرض والتحليل والحكم ، فإذا وصل إلى نهاية الفصل قرَّر أنه : (مما لا شك فيه أن ابن المعتز أصل في البلاغة العربية ، وهذه البلاغة التي قدمها تتصف بالأصالة) .

والقسم الثاني الذي جمع فيه (محاسن الشعر أو الكلام) من خاصة تفكيره ، ومما أدى إليه استقراء شاعر يعرف الشعر ، ويقدر القيم الجمالية فيه)(٣٧) .

وصاحب بلاغة أرسطو لم يرَ على كتاب ابن المعتز (أيَّةَ مسحة من الترجمة ، أو أية لوثة من العقل الهليني)(٣٨) .

وإذا كان كتاب (البديع) أوّلُ كتاب دوّن في علوم البلاغة ، وأنه شمل أنواعاً من علم البيان ، وألواناً من علم البديع - أصيلاً ، فمن الإنصاف أن نعترف بأصالة البلاغة العربية في طور من أطوارها ، وهو طور الشباب ، بعد ما اعترفنا بأنها أصيلة في طفولتها ونشأتها .

أما كتاب (نقد النثر) الذي أومأنا إليه ، والذي اعتبره الدكتور طه من أكبرالشواهد على تأثر البلاغة العربية بالبلاغة اليونانية فإننا نعجب كيف يكون هذا الكتاب احتذاء لكتاب الشعر الأرسطي ، والدكتور طه يؤكد أن أحداً من العرب لم يفهم هذا الكتاب - كتاب الشعر - ؟ .

ومن الطريف - أيضاً - أن صاحب كتاب (بلاغة أرسطو) يميل إلى أن أكثر ما جاء به مؤلف نقد النثر مما اتفق فيه مع أرسطو من قبيل تلاقي الأفكار بين المفكرين في الأمم الحية ، ويرجع كثيراً من آرائه إلى الجاحظ(٣٩) .

والذي أراه أن صاحب نقد النثر اعتمد على مفكري العرب في أبحاثه بدليل قوله في مقدمة الكتاب : (وقد ذكرت في كتابي هذا جملاً من أقسام البيان ، وفقرات من آداب حكماء أهل هذا اللسان ، لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكني شرحت في بعض قولي ما أجملوه ، واختصرت في بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت في كثير منه ما أوعروه ، وجمعت في مواضع منه ما فرقوه ، ليخف بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والإيضاح فهمه ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

---

(٣٧) المصدر السابق ص ٩١ - ١٤٥ .

(٣٨) ص ١٤٧ .

(٣٩) ص ١٨٢ .

وهذه عبارات حاسمة تبين لنا مصادر هذا المؤلف ، ومنابع معارفه ، ولا داعي لأن ندعي (التمويه والكذب) على الرجل ، فلو أنه كان أخذ حقاً عن (فلاسفة اليونان) لنوّه بهم في هذه العبارات ، وبخاصة أن السجعة بعد الفقرة الثانية كانت مناسبة ومطلوبة .

وقد قرأنا في مقدمة (أدب الكاتب) لابن قتيبة أن الناس ـ في تلك العهود ـ كانوا يفخرون بنظرهم في الفلسفة ، وأن كلمة (دقيق النظر) كانت تغري بعضهم : تخرجه من جملة الناس ، وتبلغ به علم ما جهلوه ـ على حد قول ابن قتيبة ـ .

فلو أن مؤلفاً من هؤلاء الذين يُدَّعى عليهم أنهم أخذوا البلاغة عن أرسطو كان كما قالوا لما أحجم عن التبجح بذلك في كتابه ، وعن التعالي به .

وليس شيئاً ذا بال أن صاحب نقد النثر ذكر عن علماء اليونان وأدبائه آراء وأمثلة ، فذلك لا يدل على أكثر من أنه عرف هذه (البسائط) من مطالعاته ، أو من سماعه ، أما أنه نظر في كتاب الشعر فلم يفهمه ، وتلفت حواليه ليجد أحداً فهمه فلم يظفر به ، ثم يحتذيه فهذا هو القول يثير العجب ، ويدعو إلى التوقف والنظر .

والمرحوم الدكتور إبراهيم سلامة ـ مع اعتداله فيما نقلناه عنه في هذا البحث ـ يتطرف أحياناً ، ويجمح به قلمه فيجيء بما لا يصح في البحث العلمي .

الدكتور طه أكد أن الجاحظ لم يعرف شيئاً عن كتاب الخطابة ، ولكن الدكتور سلامة يرجّح ـ مع اعترافه بضعف الرواية ـ أن كتاب الخطابة ترجم على عهد الجاحظ ، ترجمه حنين بن إسحاق (الأب) ، وبذلك يكون أرسطو معروفاً من غير شك عند الجاحظ عن طريق كتاب الخطابة(٤٠) ، وآية ذلك أن كلام الجاحظ في السجع يتردد فيه صدى أرسطو .

فإذا كان الرأي الراجح أن كتاب الخطابة ترجم بعد الجاحظ ، ترجمه إسحق بن حنين (الابن) المتوفى سنة **٢٩٨** هـ ، إذا صح هذا فالمسألة غير معضلة عند الدكتور سلامة ، فهو ـ أيضاً ـ يرجح اطلاع الجاحظ على الكتاب قبل ترجمته قال : (وقد رجحنا أنه ـ الجاحظ ـ إن لم يكن أدرك كتاب الخطابة لأرسطو مترجماً فقد عرف ما فيه من أفواه النقلة الذين اعتزموا ترجمته ، والجاحظ يلقف الثقافة من الفم والعقل ، كما يلقفها من الكتب ومن أسواقها)(٤١) .

(فهو في الحالين إما أن يكون قد عرف الكتاب ، وإما أن يكون قد سمع به ، وأَذَنْ يكون قد نقل إليه شيء من اتجاهات هذا الكتاب الجديد ، الذي تتحفز الجهود لترجمته ، إن لم يكن قد نقل عنه فعلاً بعد ترجمته)(٤٢) .

---

(٤٠) بلاغة أرسطو ص ٧٤ .

(٤١) المصدر السابق ص ٣٩٦

(٤٢) المصدر السابق ص ٧٤.

لا أعرف في مجال التحقيق العلمي كلاماً أشد غرابة من هذا الكلام ، فإنه إذا كان هناك شيء في الأحكام الأدبية والعلم يحتاج إلى مزيد من التحفظ والحذر كان هو الحكم بأن فلاناً أخذ عن فلان ، فإنه إذا لم يكن الدليل قاطعاً في هذا الحكم كان ضرباً من التخرّص والحدس والتخمين والجور ، بل كان من أشد ألوان الظّلم .

هل يكبر على الجاحظ ، أو يستغرب منه أن ينظر في جودة الكلام فيعرف الفضيلة ، ويردها إلى اللفظ ؟ .

هل معاصرة الجاحظ لإسحق بن حنين مترجم كتاب الخطابة تجعل من الحتم ، أو حتى من المرجح أن يعرف ما يتضمنه الكتاب ، وأن يذهب فيدونه في كتابه ؟ .

وما الذي منع الجاحظ - حينئذ - أن يعزو القول إلى أرسطو ، وأن يؤيده ويعارضه ، ويرد عليه قوله على نحو ما فعل في كتاب الحيوان ؟ .

هل كان الجاحظ من ضعف الثقة في نفسه ، وهو أحد أفذاذ الدنيا ، وقد ألف كتابيه : (البيان) و (الحيوان) في أخريات حياته ، أي بعد ما ذاع صيته ، وأكبره الخاصة والعامة ، هل كان بحيث يتزيد على الناس فينسب لنفسه كلاماً يأخذه من أفواه النقلة منسوباً إلى أرسطو ؟ .

ثم ما قصة تردد صدى أرسطو في سجع الجاحظ ؟

لقد لاحظت أن بعض الباحثين الذين يحلو لهم أن يحكموا على البيان العربي بأنه بيان يوناني يلجأون إلى أفكار جزئية صدرت عن بعض العلماء العرب ويبحثون لها عن نظير في كلام أرسطو ، ثم يصدرون الحكم بالأخذ والنقل وتردد الصدى . . . إلى ما هنالك .

يقول أرسطو في كتاب العبارة : (إن ما يخرج بالصوت دالٌّ على الآثار التي في النفس ، وما يكتب دال على ما يخرج بالصوت . . .) .

ويقول الجاحظ : (المعاني القائمة في صدور العباد ، المتصورة في أذهانهم . . . مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وإنما تحيا هذه المعاني في ذكرهم لها ، وأخبارهم عنها)(٤٣) .

والفكرة في الكلامين بسيطة ساذجة ، يُحس بها حتى أدنى طبقات العوام ، وقد يعبر بعضهم عنها بعباراتهم المتداولة عندهم ، والتي لا تبعد في مضمونها عما قاله أرسطو وما قاله الجاحظ ، وقد عبر عنها قديماً الشاعر التغلبي الأخطل في قوله :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

---

(٤٣) البيان والتبيين جـ ١. ص ٩٠ .ط التجارية .

كل ذلك ليس موضع شك ، ولا ينشأ حوله خلاف ، ولكن الدكتور شكري عيَّاد بعد أن يذكر كلام الجاحظ يقول : (ونحن نجد في هاتين الفقرتين آثاراً واضحة لطريقة المتكلمين ، ولكنا لا نكاد نشك في أن الجاحظ أخذ أصل الفكرة من قول أرسطو[٤٤] ، ويذكر العبارة السابقة .

فمِمّن يا تُرى أخذ الأخطل أصل فكرته ؟ .

وقد يذهب عن الباحث ما لو فطن إليه لتوقف طويلاً عن الحكم ، وإبداء الرأي .

يقول الشيخ عبد القاهر : (واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول ، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً ، وأن يكون حالك فيها حال الباني ، يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك ، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين[٤٥] .

فيرجح الدكتور شكري عياد أن عبد القاهر استفاد فكرة الوحدة التي يرجع أساسها إلى كتاب الشعر .

فمتّى يقول : (الأجزاء أيضاً تقوم الأمور هكذا حتى إذا نقل الإنسان جزءاً ما أو رفع يفسد ويتشوش ، ويضطرب كله بأسره)[٤٦] .

ويقابله في تلخيص ابن سينا : (فيجب أن يكون تقويم الشعر على هذه الصفة . . . ويكون بحيث لو نزع منه جزء واحد فسد وانتقض)[٤٧] .

وقد غاب عن الباحث أن عبد القاهر قال في أكثر من موضع من كتبه أن للأولين كلاماً في علم الفصاحة ، وأن أكثره أو كله رمز ووَحْي وكناية وتعريض وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر ، وأن العقلاء من المتأخرين لم يمعنوا النظر في كلام الأولين[٤٨] ، وأنه نظر ودرس .

ومعنى ذلك أن عبد القاهر استقى كثيراً من معارفه من الأوائل ، فإذا عدنا إلى فكرة الوحدة التي رأى الدكتور عياد أن عبد القاهر أخذها من أرسطو وجدنا أنها فكرة كانت معروفة عند الأولين .

من ذلك - مثلاً - قول كلثوم بن عمرو العتابي : (الألفاظ أجساد ، والمعاني أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخراً ، أو أخرت مقدماً أفسدت الصورة ، وغيّرت المعنى ، كما لو حوّل رأس إلى موضع يد ، أو يد إلى موضع رجْل لتحولت الخلقة ،

---

[٤٤] أرسطو طاليس في الشعر ص ٢٣٢ .

[٤٥] دلائل الأعجاز ص ١٢٧

(٤٦ و٤٧) أرسطو طاليس في الشعر ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، والفقرة الثانية مطولة في ص ٢٤٠ .

[٤٨] انظر مثلا ص ٤٠٨ من دلائل الاعجاز . طبعة مكتبة القاهرة .

وتغيرت الحلية)(٤٩) .

ومما يدعو إلى العجب في هذا الموضع أن الدكتور شكري عياد يقول : (لا نستطيع القول بأن كتاب الصناعتين يحمل شيئاً من طابع التفكير اليوناني فيما عدا الولع بالتعريف والتقسيم)(٥٠) .

وبطبيعة البحث لا يكون هذا الحكم إلا بعد دراسة كتاب الصناعتين دراسة مستقصية واعية .

لكنا نجد في الكتاب ، وبين يدي الباحث فكرة الوحدة التي رأى أن عبد القاهر سطا فيها على ما كتب أرسطو ، نجدها واضحة في قول العسكري : (وحسن الرصف أن توضع الألفاظ مواضعها ، وتمكن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة ، إلا حذفاً لا يفسد الكلام ، ولا يعمِّي المعنى ، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها ، وصرفها عن وجوهها ، وتغيير صيغها ، ومخالفة الاستعمال في نظمها)(٥١) .

أما كان في قول العتابي والعسكري وغيرهما ممن قال بهذه الوحدة غِنىً لعبد القاهر ومندوحة من الذهاب إلى أسبرطة القديمة ، وهو الذي يعترف كثيراً بأن القدماء عالجوا هذه المعارف التي يُبْدِىءُ القول فيها ويعيد .

ويمضي بنا الحديث عن (العسكري) إلى موقف الدكتور إبراهيم سلامة منه ، فنرى أن صنيعه معه لا يقل غرابة عن صنيعه مع الجاحظ .

خالف أبو هلال أرسطو في بعض مناحي قضية اللفظ والمعنى ، ووافقه في ناحية واحدة منها ، فعلام يدلّ هذا عند الدكتور سلامة ؟ .

يدل على أن أبا هلال وافق فيما فهم من كلام أرسطو ، وخالف فيما لم يفهمه ، فبعد أن بسط الدكتور سلامة بعض الشيء القول في مذهب أرسطو في اللفظ والمعنى ، وبعد أن تساءل : أكان العسكري عالماً بما كتبه أرسطو عن هذه المسألة في كتاب الخطابة ؟ .

بعد ذلك قال : (وأبو هلال ـ بعد ذلك ـ إذا جعل للفظ قيمة يرجح أنه وقف على عبارة واحدة من عبارات أرسطو يقول فيها : إن الكلمات الجديرة بالاستعارة والمجاز هي الكلمات التي تحمل جمالها في جرسها ، أو في قيمتها اللغوية ، أو في معرضها ، أو في أية ناحية من نواحي الحس اللغوي)(٥٢) .

مع أن هذا الباحث أكد أن كتاب الخطابة كان معروفاً شائعاً في القرن الرابع الهجري ، الذي عاش فيه أبو هلال فكيف لم يقف هذا إلا على عبارة واحدة مع ما تدلنا عليه كتب هذا الأديب من رغبة شديدة في البحث والاطلاع ، والأخذ عن الآخرين ؟ .

---

(٤٩) كتاب الصناعتين ص ١٦٧ .

(٥٠) ارسطو طاليس في الشعر ص ٢٣٨ .

(٥١) ص ١٦٧ .

(٥٢) بلاغة أرسطو ص ٢٦٧ .

ثم نعجب - أيضاً - لتصريح الدكتور سلامة بلفظ (الاستعارة) ، في هذا النقل وقد أثبتنا فيما سبق من هذا البحث نقلاً عنه يؤكد فيه عدم معرفة أرسطو للاستعارة ، أو تعريفه للتشبيه .

والذي عند الدكتور إبراهيم سلامة الشك في فهم العسكري ، فهو يقول إذا كان أبو هلال أوْلى جانب اللفظ كل العناية ، وجعله يرجح جانب المعنى ، وهذا ما لم يقل به أرسطو ، فإن ذلك (يجعلنا نشك في فهم أبي هلال)(٥٣) .

ومعنى هذا أن (أبا هلال اطلع قطعاً على ما قاله أرسطو في اللفظ والمعنى فما ارتآه فقد فهمه ، وما تركه فإنه لم يفهمه ، كأنه كان حتماً على أبي هلال أن يترسم خطى أرسطو ، إذْ كان هناك فرض آخر - على فرض تسليمنا باطلاع أبي هلال على كتاب الخطابة - وهو أن يكون العسكري فهم كل ما كتبه أرسطو ولكنه أخذ بعضاً وافق رأيه ، وترك بعضاً لم يرق له .

ولكن الدكتور سلامة كان يعتقد - على ما يبدو من كلامه - أن أبا هلال لو فهم كلام أرسطو كله في اللفظ والمعنى لما وسعه إلا أن يضع قدمه على قدمه ، وكفى بذلك تحقيراً لواحد من أشهر أدبائنا ، وعلمائنا ! .

ولا ننسى ما نقلناه آنفاً عن الدكتور شكري عياد دارس كتاب أرسطو في الشعر من أنه لم يجد أثراً للتفكير اليوناني في كتاب الصناعتين فيما عدا الولع بالتعريف أو التقسيم .

* * *

وقدامة بن جعفر صاحب (نقد الشعر) ، فهو عند الدكتور طه لم يفهم كتاب الشعر لأرسطو إن كان قد اطلع عليه ، وربما لم يكن رآه؛ لأنه لا يلمح فيه أي في نقد الشعر - أي أثر لنظرية المحاكاة المشهورة ، والتي هي جوهر كتاب (الشعر) ، لكنه إذا كان يجهل كتاب الشعر فقد كان على إحاطة تامة بكتاب الخطابة ، وقد فهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به ، وطبق ما فهمه على الشعر العربي(٥٤) .

وقد نسي الدكتور طه أنه قال في أول بحثه أن العرب فلاسفتهم وأدباءهم لم يفهموا - حق الفهم - من كتاب الخطابة إلا الجزء المتعلق بالعبارة ، وإلا أفكاراً عامة قريبة من متناولهم ، وأنهم لم يفهموا أكثر أمثلته ، لكنه يؤكد - هنا - أن قدامة كان على إحاطة تامة بكتاب الخطابة، وإنه فهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به .

وقد أشرت سابقاً إلى هذا ، لكن الحديث عن قدامة ، وتأثره بالفكر اليوناني اقتضى الإعادة .

أما رأي الدكتور سلامة فيتمثل في قوله : (أنه - يعني قدامة - أدرك كتاب الشعر في أوائل ظهور ترجمته ، فاستأثر به ، وأخفاه في كمِّه ، وأخذ يتطلع إليه من وقت لآخر ليضع قواعد جديدة للشعر العربي)(٥٥) .

---

(٥٣) المصدر السابق ص ٢٦٥ .

(٥٤) مقدمة نقد النثر ص ١٧

(٥٥) بلاغة أرسطو ص ١٤٨ .

فهذا الباحث ـ فوق مناقضته للدكتور طه ، يتخيل أمراً عجيباً ، ويرسم صورة طريفة لقدامة ، كأن كتاب الشعر لم يترجم إلا له ، وكأن قدامة كان من ضعف الدين والخلق إلى هذا الحد من التمويه على الناس ، وكأنه حين وضع قواعد الشعر العربي لم يستفد شيئاً ممن سبقوه من أدباء العرب وعلمائهم .

وكيف لا ـ عند الباحث ـ وقدامة كان يخفي عن الناس أنه يأخذ عن أرسطو ، ولكنه في بعض المواضع (لا يستطيع أن يضبط نفسه حينما تدفعه إلى الاعتراف بمصدره الأصلي ، فيقول : وكذا يرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم)(٥٦) .

جاء كل ذلك تعليقاً على قول قدامة : أن بعض القدماء يقول : أحسن الشعر أكذبه .

وعلى الجملة فقدامة يتتبع خطوات أرسطو : (ويتأثر علامات أقدامه في صحراء الزمن ، ويضع قدميه على هذه العلامات)(٥٧) .

(وهكذا لو شئنا أن نتتبع قدامة في تقديره ونقده ، وفيما زاده من أنواع مقاييسه البلاغية لوجدناه على قدم المعلم الأول ، يلقف من كلامه ما ترجم ، ومن بلاغته ما كان يلقفه من مترجمي عصره)(٥٨) .

وينظر باحث آخر في اعتراض الآمدي على قدامة بشأن تعريف (المعاظلة) ، ثم يقول : وبالرجوع إلى كتاب قدامة نجد أنه قد تحدث عن المعاظلة لكنه لم يفهم معناها ، ولا حدد مدلولها ولعل ذلك لأن أرسطو لم يتحدث عنها)(٥٩) .

ومعنى ذلك أن قدامة لم يكن يعرف من العلم ، ولا من الكتب غير ما ترجم عن أرسطو ، ومعناه ـ أيضاً ـ أن قدامة لم يفهم مما كتب شيئاً ، ولا حدّد مدلول نوع من الأنواع إلا لأن أرسطو كتب عنه ، ومعناه ثالثاً أن كتاب (نقد الشعر) نسخة أخرى من (كتاب الشعر) ، إلا ما جاء فيه مما لم يفهمه قدامة .

وليس هذا استنباطاً مني ، من كلام هذا الكاتب ، بل قد صرح به إذْ يقول : (وهذه التعريفات ـ تعريفات قدامة ـ تظهرنا على مبلغ خلط قدامة ، وعدم قدرته على فهم شيء بنفسه ، أو تحديد معنى لفظ)(٦٠) .

ولعل صاحب (النقد المنهجي) نقل عن صاحب (بلاغة أرسطو) في هذا الموضع ، حين علل مخالفة قدامة لأرسطو في بعض المواضع بأن قدامة لم يقرأ أرسطو في هذا الموضع ، أو يكون قد قرأه ، ولكن لم يرتضِ رأيه(٦١) .

وأصلهما الذي يرجعان إليه ـ في هذا ـ كلام

---

(٥٦) المصدر السابق ص ١٥٨ .

(٥٧) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٥٨) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

(٥٩) النقد المنهجي عند العرب ص ١٣٠ .

(٦٠) المصدر السابق ص ١٣١ .

(٦١) بلاغة أرسطو ص ١٦٧ وعبارته التي اثبتناها سابقا : وما خالف فيه لم يفهمه .

الدكتور طه حسين ، فقد لاحظ ـ كما أسلفت ـ أنه لا أثر في كتاب (نقد الشعر) لنظرية المحاكاة ، ثم قال : (وإذاً فلا بد من أحد أمرين : فإما أن قدامة لم يطلع على كتاب الشعر ، لأنه لم يكن ترجم بعد إلى اللغة العربية ، أو أنه قد اطلع على الأصل اليوناني ، أو على ترجمة سريانية ، فلم يتيسّر له فهمه)(٦٢) .

وقد نقلت من قبل أن الدكتور طه أكد أن كتاب الشعر لأرسطو ترجم في القرن الرابع الهجري ، ولكن لم يفهمه أحد من العرب على الإطلاق .

ولكن ذلك لا يرضي مَن يريدون أن يردّوا بلاغة قدامة إلى أرسطو فهم يؤكدون أن الكتاب ترجم في حياة قدامة ، وأنه فهمه ، وأخذ منه ، وما لم يفهمه منه خالف فيه المعلم الأول .

* * *

(أعذب الشعر أكذبه) كلمة قديمة ، نسب معناها إلى النابغة الذبياني ، وكانت معروفة عند نقاد العرب وعلمائهم وشعرائهم حتى قال البحتري :

كلفتمونا حدود منطقكم
والشعر يغني عن صدق كذبه

فجعل الكلمة مقابلة لمنطق يونان ، واليونانيون قالوا ما يشبه هذه الكلمة ، فما الذي جعل أخْذ قدامة عن أرسطو أولى من أخذه عن سلفه من نقاد (العرب) وعلمائهم وشعرائهم ؟ .

ونظرية الوسط معروفة من قديم ، وتكاد تكون فطرية ، ومما روي عن رسول الله ﷺ : (خير الأمور أوساطها) ، ومن كلمات أبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ـ وكان من أساتذة قدامة ـ قوله : (والتوسط ممدوح بكل لغة ، وموسوم بكمال الحكمة)(٦٣) .

فما الذي يدعونا إلى أن نلحق صنيع قدامة بحكمة اليونان دون أن نردها إلى حكمة العرب ؟ .

وكثير من الألقاب التي ذكرها قدامة كانت معروفة قبله ، ويدل على ذلك قوله : (ومما يدل على أن المعاني قد كانت في نفوس الناس قديماً أن أبا العباس محمد بن يزيد النحوي قال : (حدثني التَّوَّزي ، قال : قلت للأصمعي : من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً ، أو ينقضي كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أدى بها معنى) .

فالمعاني ـ ويريد بها إدراك الألوان البلاغية ـ كانت في نفوس الناس ، وهو يسند بعض هذه المعاني إلى من سبقوه ، ويشير إلى مصدر بعضها .

---

(٦٢) مقدمة نقد النثر ص ١٧ .

(٦٣) قواعد الشعر ص ٦٣ .

قلتُ : ومن قول الأصمعي أخذ علماء البلاغة فيما بعد النوع البديعي الذي سموه (الإيغال) .

ولا شك ـ عندي ـ أن أثر كتاب (قواعد الشعر) كان واضحاً في كتاب (نقد الشعر) ومن ذلك الكلام على عيوب الوزن ـ مثلاً ـ فإنه يكاد يكون منقولاً نقلاً عن كتاب ثعلب . و (الترصيع) مأخوذ من الكلام على الأبيات الموضحة في كتاب قواعد الشعر أيضاً ، وأنواع أخرى أيضاً يعرفها من يقارن بين الكتابين .

هذا ، ولعل من أعجب العجب في الاستدلال على نقل قدامة من بلاغة أرسطو أن كتاب (نقد الشعر يتفق وعنوان كتاب (الشعر)(٦٤) .

ولم لا يتفق مع كتاب أستاذه (قواعد الشعر) أو كتاب (معاني الشعر) للأصمعي أو كتاب (صناعة الشعر) لأبي هفان المهزمي المتوفى سنة ١٩٥ هـ ، أو كتاب (قواعد الشعر والبلاغة) للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ أو كتاب (صناعة الشعر) لأبي زيد البلخي ، المتوفى سنة ٣٢٢ هـ وهو عصريُّ قدامة(٦٥) ، وكذلك كان عصريه (ابن طباطبا العلوي) صاحب (عيار الشعر) ، أفلم يكن الأولى بقدامة أن يأخذ عن واحد من هؤلاء ، أو عن آخرين كثيرين قبله من علماء العرب وأدبائه ألفوا في (الشعر والشعراء) وفي (صناعة الشعر) ؟ .

وينتهي بنا وبهم المطاف أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي حبسه الدكتور طه حسين في (سجن أرسطو) لا يكاد يبرحه ، ولا يجد منه فكاكاً .

وبهذا الحديث عن عبد القاهر تكتمل الصورة ، ولعلنا نقنع غيرنا ـ كما اقتنعنا ـ أن البلاغة العربية ، أو على وجه التحديد (علوم البلاغة العربية) أصيلة في نشأتها ، وتطورها ، واكتمالها ، وأنها إذا كانت أخذت من بلاغة اليونان ، أو غيرهم ، فبالقدر الذي لا يمس الجوهر ، وإنما يكون إشعاعاً من ثقافة الدارس على ما يكتب، وأن علماء البلاغة عند العرب لم يضعوا أمامهم قط بلاغة أرسطو ليحتذوها ، أو لينقلوها إلى العربية ، وإنما كانوا ينظرون فيما بين أيديهم من تراث عربي ، أدبي أو علمي ، ويصدرون عنه ، وقد صرح منهم كثيرون بذلك ، حتى السكاكي الذي كان يعد أستاذاً في المنطق يقول بعد أن ينتهي من فصول القسم الثالث ـ وهو الخاص بالبلاغة ـ من كتابه (مفتاح العلوم) ـ يقول : هذا ما أمكن تلخيصه من كلام الأصحاب .

وكل ما نعتقد أنه كان من هؤلاء العلماء أن بعضهم أضاف إلى معارفه العربية الواسعة العميقة ما ثَقِفَه من معارف أخرى ، فهذا شيء في الطريق ، وليس هو المصدر .

وإذا كان الدكتور طه حسين يقول ـ مثلاً ـ أن

---

(٦٤) بلاغة أرسطو ص ١٦٨ .

(٦٥) كلمة تؤدي معنى (معاصر) وهي أحق من (معاصر) بالاستعمال والشيوع ، لأنها قياسية و (معاصر) خارجة عن السماع وعن القياس .

العرب لما وجدوا أرسطو يقول (كر أخيل أسداً) قالوا هم (كرَّ زيد أسداً) ، فإنَّا - على طريقته - نقول إني لاحظت في كتاب (تلخيص الخطابة) لابن رشد أن أرسطو يردد ترداداً ملحوظاً كلمة (التخييل) حتى لقد عسر عليَّ إحصاؤها ، ولما رجعت إلى (أسرار البلاغة) للشيخ عبد القاهر الذي قيل أنه لون آخر من بلاغة أرسطو لم أجد فيه هذه الكلمة (التخييل) إلا مرات معدودة في حين أنه من الممكن أن يقال أن أرسطو ذكرها تقريباً في كل فقرة في القسم الخاص بالبلاغة .

ونعود إلى الدكتور طه فنراه يرسلها كلمة حاسمة : عبد القاهر لم يخرج بحال عن الحدود التي رسمها أرسطو ، يقول ذلك بالنسبة لأسرار البلاغة .

أما الدكتور إبراهيم سلامة فإنه يتهيب هذا الحكم ، فعبد القاهر - في رأيه - يخالف أرسطو أحياناً ، وإذا اتفقا في شيء فعبد القاهر متأثر به ، أو على الأقل هاضم لما قرأه من كلام أرسطو .

ثم يتدخل باحث ثالث في هذا الموضوع هو الدكتور محمد خلف الله ، ويقول : (وليس من دليل على أن عبد القاهر قرأ كتاب الشعر إلا ما رجحه طه حسين من أن عبد القاهر انتفع بتعريب (ابن سينا) لخطابة أرسطو وشعره ، ولن تعطينا النظرة السريعة التي نظرناها في كتاب (الشعر) لأرسطو أكثر من ترجيح أن عبد القاهر متأثر بأرسطو على العموم في منزعه النفساني في فهم ظواهر الأدب)(٦٦) .

وقد عقب الدكتور أحمد بدوي على هذا الرأي قائلاً : (وإذا لم يكن هناك دليل فكيف يكون ثمَّة ترجيح)(٦٧) .

وعند هذا الأخير نجد أن عبد القاهر لم يتأثر أي تأثر بالثقافة الإغريقية ، بدليل أنه لم يشر إشارة واحدة إلى أنه نقل منها ، مع أنه يشير إلى مصادره العربية ، ثم يرد الأدلة التي أوردها الدكتور خلف الله .

* * *

يبدو لنا أن الحجج التي اعتمد عليها هؤلاء الذين يَرْجِعون البلاغة العربية إلى الثقافة اليونانية هي السبق ، والتوافق ، والذهنية العربية التي لم تكن في طبيعتها ذهنية علمية .

ولكن ليس معنى أن أحداً سبق برأي من الآراء في قضية من القضايا أن من جاءوا بعده أخذوا منه ، ونقلوا عنه ، فإن في ذلك حجراً على العقول ، واتهاماً لذوي الألباب ، كما أن فيه تفسيراً للتاريخ بغير حجة .

والسبق ، وموافقة الخالف للسالف لا يكفيان في الحكم بالأخذ ، بل لا بد أن يكون هناك دلائل قوية ، فإن الحافر كثيراً ما يقع على الحافر - كما كان يقول العرب - في العلم وفي الأدب ، وفي كل لون من ألوان المعارف والصناعات .

---

(٦٦) من الوجهة النفسية ص ١١١ .

(٦٧) عبد القاهر الجرجاني (أعلام العرب) ص ٣١٤ .

وقد تكون طبيعة الموضوع أدعى إلى إحسان الظن بالمتأخر ، فإن من مسائل البحث والاستنباط ما يقرب فيه أن تتفق الآراء على بعد المكان ، وعلى تطاول الأزمنة .

وها نحن أولاء نرى العلماء في دولتين مختلفتين يهتدون في نوع من العلم إلى نتيجة واحدة ، مع أن كلًّا من الدولتين تجري أبحاثها في تكتم بالغ ، وتحرم بكل وسيلة أن يذيع أحد أسرار هذه الأبحاث .

وربما كانت قواعد اللغات أحق هذه الأبحاث بأن تتفق فيها النتائج دون أن يأخذ باحث عن باحث .

ذلك أن اللغة حاجة طبيعية للإنسان ، ومناهج اللغات في الأداء ، وفنون القول التي تعبر عنها تكاد تكون متقاربة ، وكذلك مجاري التفكير في النفوس لا تكاد تختلف في النفس الإنسانية إلا بالقوة والضعف ، والعمق والسطحية .

فبدهي أن من يمعن التأمل في أساليب لغته ، ويطيل التفكير فيما تعبر عنه ـ لا سيما إذا كان من أصحاب العقول الكبيرة ـ يمكنه أن يهتدي إلى بعض الطرائق العامة التي تشيع فيها ، بل ربما اهتدى في نوع خاص من العلم إلى أكثر الطرائق ، كما كان من الخليل بن أحمد في استنباط مسائل العروض من الشعر العربي .

وقد يهتدي الأول إلى الأصل ، أو إلى شيء من الفروع ، ثم يجيء من بعده فيبنون على ما أسس ، ويفرِّعون عليه ، أو يضيفون إلى الفروع فروعاً ، ثم يستخرجون القاعدة الكلية ، وبذلك ينمو العلم ، وتتسع المعارف ، وتوضع القواعد الكلية بعد استقراء المسائل الجزئية .

ونحن لا نستطيع أن نحكم بأن الثاني أخذ من الأول إلا إذا وضح أمامنا الدليل ، فليس من يقينيات العقل أن يكون الثاني تابعاً للأول ، بل قد يهتدي الثاني في نوع من المعرفة إلى جزئية من جزئيات العلم لم تخطر على بال السابقين له .

كل ذلك ـ فيما أعتقد ـ ليس موضع شك ، فإن الله ـ سبحانه ـ لم يقصر العلم والمعرفة والابتداع على أمة دون أمة ، ولا على زمن دون زمن .

وأمر ذو أهمية بالغة فات أولئك الذين يحكمون بالاحتذاء بمجرد أن يروا قضيتين متشابهتين في كتابين أحدهما أسبق من الآخر .

ذلك أن بعض القضايا بل كثيراً منها تظهر مثلاً في كتاب ظهر بعد كتاب آخر سبقه، فيحكم بالاحتذاء ، ثم بالبحث نجد أن هذه القضية ظهرت قبل أن يخرج الكتاب الأول إلى الوجود ، وقد تحققتُ من ذلك حين أتيح لي أن أقرأ ما وقع تحت يدي من بلاغة أرسطو ، وربما كان أكثرها ، فرأيت فيها قضايا ومسائل ظهرت على ألسنة أدباء العرب وعلمائهم قبل أن يترجم

---

(٦٨) المثل السائر جـ ١ . ص ٣١١ ، ٣١٢ .

كتاب الخطابة وكتاب الشعر ، ثم ظهرت في كتب علماء القرون التالية لترجمة هذين الكتابين فظن من لم يكثر البحث والتنقيب في آثار الأولين أن المؤلفين العرب المتأخرين أخذوها من الثقافة اليونانية ، وهي ـ في الحقيقة ـ مأخوذة من أسلافهم العرب ، ولولا خوف الإطالة لأوردت كثيراً من هذه المسائل ، وهذه القضايا .

* * *

ونختم هذا البحث برأي ضياء الدين بن الأثير ، فقد نفى هذا الأديب العالم تأثر الشعراء والكتاب من العرب بالأصول التي وضعها اليونان .

يقول : (ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا ـ يريد ما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني ـ ، وانساق الكلام إلى ذكر شيء لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكر ضرب من الشعر اليوناني يسمى (اللاغوذيا) ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي ، ووقفني على ما ذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته ، فإنّه طوّل فيه وعرّض كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئاً .

وبعد أن يذكر أن كلام يونان لم يؤثر في أبي علي نفسه حين صاغ شعراً أو كلاماً مسجوعاً ، يقول عن أفكار اليونانيين : (وإنما هذه أوضاع توضع ، ويطول بها مصنفات كتبهم في الخطابة والشعر ، وهي ـ كما يقال ـ فقاقع ليس لها طائل كأنها شعر الأبيوردي) .

والذي يعنينا هنا هو أن ابن الأثير وصف بلاغة اليونان ومنطقهم بأنها (لغو) وبأنها (فقاقع) ليس لها طائل .

وبملاحظة أخيرة أيضاً :

في تلخيص الخطابة : (وإنما كانت الألفاظ المغيرة تعطي أمراً زائداً لموضع الغرابة فيها ، فإنه كما يعرض لأهل المدينة أن يتعجبوا من الغرباء الواردين عليهم ، وتخشع لهم أنفسهم ، كذلك الأمر في الألفاظ الغريبة عند ورودها على الأسماع ، فينبغي لمن أراد أن يجيد القول في هاتين الصناعتين ـ صناعة الخطابة ، وصناعة الشعر ـ أن يجعله غريباً)(٦٩) .

وفي موضع آخر من نفس الكتاب : (القول الشعري ينبغي أن يجمع الغرابة من جميع الجهات ، وفي الغاية ، مثل أن يكون بألفاظ مغيَّرة في الغاية ، وألفاظ غريبة ومشتركة)(٧٠) .

وهكذا ترجم ابن سينا هذه الفقرة من كتاب الخطابة ، فأرسطو يدعو ، وبكل إصرار إلى استعمال (الغريب) و (المشترك) ، وكل الذين ادُّعي عليهم من علماء العربية أنهم احتذوا أرسطو يرفضون هذه (الغرابة) وهذا (الاشتراك) ، ويدعون في كل كتبهم إلى الوضوح ، ورفع اللبس ، وكتاب (البيان والتبيين) كافٍ بعنوانه لرفض فكرة أرسطو هذه عن الغريب والمشترك .

---

(٦٩) ص ٥٤١ .

(٧٠) ص ٥٤٥ .

ومن الطريف أن محقق (تلخيص الخطابة) الدكتور محمد سليم سالم بعد أن ذكر قول ابن سينا في ترجمة هذه القضية (٢٠٢) قال : (لاحِظْ الخطأ الذي وقع في الترجمة العربية ، فأرسطو يقول إن فضيلة الأسلوب هي الوضوح لا التغيير)(٧١) ، وكم ذكرت كلمة التغيير والمغيِّر في الترجمة العربية !! .

فابن سينا أخطأ في الترجمة ، وابن رشد لم يفهم كتاب الخطابة ، وترجمته رديئة في رأي الدكتور طه حسين ، فعلامَ اعتمد علماؤنا حين احتذوا ونقلوا أعلى الخطأ أم على الصواب ؟ .

وحين خالفوا أرسطو - في الترجمة الخاطئة - أكانوا مخالفين أم موافقين ؟ لكن أصحاب الدعوة الهيلينية يدعون أن علماءنا خالفوا حين لم يفهموا ، وأخذوا واحتذوا ما فهموه ، وهي دعاوى تحتاج إلى أدلة حاسمة ، وكما ظهر لي ليست هناك أدلة إلا على مجرد التأثر العام ، بل يكاد يجزم مَن يتعمق دراسة كتب عبد القاهر ، ودراسة (الخطابة) و (الشعر) بأنه لا صلة بين هذه وتلك .

د. علي محمد حسن (العماري)

---

(٧١) هامش ص ٥٣٩ من كتاب (تلخيص الخطابة) .

المصادر والمراجع

ارسطو طاليس في الشعر	د . شكري عياد .
أسرار البلاغة	عبد القاهر الجرجاني .
البديع	عبد الله بن المعتز .
بلاغة أرسطو	د . إبراهيم سلامة .
البيان والتبيين	الجاحظ .
البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر	د . ط حسين .
تلخيص الخطابة	ابن رشد .
تلخيص كتاب ارسطو طاليس في العبارة	ابن رشد .
الحيوان	الجاحظ .
دلائل الاعجاز	عبد القاهر الجرجاني .
زهر الآداب	الحصري .
الشفاء	ابن سينا .
عبد القاهر الجرجاني	د . أحمد بدوي .
العمدة	ابن رشيق القيرواني .
قواعد الشعر	أحمد بن يحيى (ثُعلب) .
الكتاب	سيبويه .
كتاب الصناعتين	أبو هلال العسكري .
المثل السائر	ضياء الدين بن الأثير .
مجلة مركز البحث العلمي	العدد الخامس .
النثر الفني في القرن الرابع الهجري	د . زكي مبارك .
نقد الشعر	قدامة بن جعفر .
نقد النثر : ؟ .	